قصيدة الإرث

إلى كل المؤتمرات العربية والإسلامية التي عُقدت، والتي لمّا تُعقد، ...
إلى أن يأتي اليوم الذي يقوم فيه القومْ.

. صـــالح الرحّـــال .

هذا القَرْنُ[1] الغائرُ ما بيْنَ العينيْنِ
وعند حدود الأنْفِ العُليا،
يُوحي أنّ الإرثَ اليعقوبيَّ
قِتالٌ مُرٌّ وعِراكٌ حتى الموتْ.
ويوحي أنّ السِّلْمَ السَّلَم هوانٌ ذِلّهْ،
ما دامَ الذئبُ يجوسْ.
فاعلمْ يا هذا الصاعدُ من ذرّاتِ الرمل،
ومن أرض القُدسِ وبغدادَ وكعبةِ مكّهْ،
أنّك مذبوحٌ، مأكولٌ، هالكْ
إنْ سرْتَ وراءَ المحنيِّ الرأسِ، وراءَ
السَّيِّدِ والسِّيدِ[2] بعَبْسٍ أوْ ذبيانَ وَطَيءْ.
واعلمْ أنّ السيِّد والسِّيد هما هذا الليلُ
الـمُمتدُّ من البحر الغربيّ لكابولَ،
وأنتَ الأعزلُ، ما بيْنَ الفكّينِ قتيلْ.
سيقولُ البلغاءُ وأسيادُ البيتِ الأبيض
والفقهاءُ بقانون الغابات هنالك،
والمجدورون على الكرةِ المشقوقةِ
ما بين السَّيِّد والسِّيد،
بأنّك همجيٌّ، إرهابيٌّ، نذْلٌ

إذما أدميْتَ بظفركَ ذاكَ الفكَّ العلويَّ،
حكَكْتَ بروحِكَ قاعَ الشِّدقِ.
أيجوزُ لك العبثُ المجّانيُّ
بروحك ما بين الفكّيْن؟
يجوزُ أمام القانونِ بأنْ تُزعج ذاك الشدْقَ الدمويَّ،
وقد فَتَّتَ أصلابَك، أضلاعَ القصِّ، وحطَّمَ روحكْ؟
أيجوزُ ـ وأنت العاقل يا هذا ـ أن تَفْتح
بئرًا في الفكِّ العُلويِّ، وتقلعَ سنًّا واحدةً منهُ،
وكيف سيَظْهرُ هذا الشّدقُ السَّغبانُ أمام المرآة، إذا كشَّر،
فاستوحشَ مِنْ مرآهُ..؟
فأنت إذًا إرهابيٌّ مسلولٌ لا تحترمُ
القانونَ، ولا تعرفُ عُقبى ما تصنعُ،
لن يأكلك الذئبُ ولن يُزعج فكّيْهِ
بهذا اللحم المسلولْ.
سيقذفُ أشلاءكَ، أشلاءَ ذراريكَ،
على هذي الأصقاعِ،
ويتركُ عينيْك، نخاعَك، قلبَك
ذاكَ الخافقَ في سِلّته، كي يلتذَّ
بهذي الأعضاءِ الرجراجةِ، ثُمَّ يقول:

---

١ ـ القرن: هنا يَحْمل أكثر من معنى، منها: مائة العام التي مضت، أو التي ستأتي بكلِّ ما فيها وما رلنا في البدايات. أو أنّ القرد هو قرن ثورٍ مثلاً؟
٢ ـ السِّيد: الذئب.

ها قد مزّقْتُ الإرهابَ، مزقْتُ الأعضاءَ،

مزقْتُ المحروبَ المسعورْ،

فاذهبْ في ذاك النفق الخارجِ من هذا التاريخ،

اذهبْ في إرثك والدِّينِ الإرهابيِّ

ليبقى يعقوبْ.[1]

يا يعقوبُ الحجلُ البريُّ، ويا يعقوبُ الأسباطُ،

ويا يعقوبُ القتلُ الحاضرُ، يا يعقوبْ.

أَوَتذكرُ يومَ طواكَ القهرُ بيوسُفَ؟

زعموا أنّ الذئب الملعون تصيَّدهُ،

« والذئبُ الملعونُ » رماهُ ببئرٍ مفتوحٍ حتى الروحِ،

وجاء إليك كسيراً وحزينْ،

ليقولَ ويحلفَ أنّ ظهيرةَ ذاك اليومَ تشهّى

لحماً بشرياً، وتشهّى يوسُفَ، حتى كاد

يموتُ من الشهوةِ يا يعقوبْ.

أولئك أبناؤكَ منْ قتلوا يوسُفَ،

يوسُفُ ذاك الابنُ ليعقوبَ أخوهم،

وأنا لستُ أخاهم،

لستُ ابناً لأبيهم، يا يعقوبْ.

وقدْ مزَّقوا روحي، ورموني مرّاتٍ في البئر المهجور،

وقالوا: إنّي هرطيقٌ، إرهابيٌّ، دَمُهُ مهدورٌ مطلولْ.

أَخَذوا سلةَ فرحي، أخذوا قُبَّةَ قُدْسي،

أخذوا الأرضَ على طولِ المتوسّطِ،

حتى وصلوا البيتَ الأبيض، وصلوا،

وافتتحوا في مركزه سوقًا للَّحم البشريِّ هناكْ.

وقالوا في جُملةِ ما قالوه:

بأنّ الأرض فراغٌ، وهُمُ الملْءُ الأقدسُ للأرضِ،

همُ طوفانٌ يقلعُ ذاكَ العفَنَ الأرضيَّ، ويَبني

بيتًا في الريح، مكانًا للذبح القُدسيِّ ومعبَدْ.

ومضوا في طرقاتِ الأرضِ،

اثنا عشر مِنْ أسباطك يلتهمونَ الفلواتِ،

واثنا عشر من أسيادي، وهمُ الأمراءُ،

الرؤساءُ، مخاتيرُ الليل، مُلوكٌ،

وجهاءٌ، وسيوفْ.

وأنا الواحدُ والجمع المتفرّقُ،

قَيَّدني ذاك السَّيِّدُ، ورماني للسيِّدِ

وللسّبطِ، وقد غَضَّ الطرفَ قليلاً،

وأدارَ الظهر، لتخفّي أشلائي، مزَقي، كي يرتاح،

فلا يشعر بالذنب، ولا يشعرُ بالتقصيرْ.

---

١ ـ يعقوب: هو ذكر الحجل البريّ، وهو النبي يعقوب: إسرائيل.

اللَّهُ... اللَّهُ

ملوكٌ، رؤساءٌ، خمسونَ وَسَبْعٌ،[1]

نِصْفُ الأرض غشوْها أبناءُ الـ...

واجتمعوا في أقصى الشرقِ هناكَ،

يصوغون بيانًا وخطابًا، قنبلةً موقوته.

قالوا: الإرهابُ حرامٌ.

قالوا: بغدادُ حلالٌ للمحتلِّ، فإنَّ المحتلَّ

سيُلْبسها ثوبَ العُرس،

ويلبسُها ثوبًا للشهوات،

وبغدادٌ فتاةٌ يملأُها الشبقُ الصحراويُّ،

ودجلةُ لا يُروي غُلْمتَها،

فهي حلالٌ للأوباش، حلالٌ للتجّارِ، حلالٌ

للمحتلِّ القادمِ من غربِ البحر إليها، وحلالْ.

وقالوا: إنّ القُدسَ بما هي قُدسُ الأقداسِ،

وإنَّ الإرثَ اليعقوبيَّ قديمْ.

وهنا غصَّ الحلْقُ الشيطانيُّ، أرادَ الشُرْبَ،

أراد الماءَ، لكيْ يُكْملَ هذا المزمور

الذُلَّ، ويخلُص من هذا الردِّ، وذاكَ الدفْعِ

وتُهمتِه بالإرهاب.

وهنا يا اللَّه.. هنا يا اللَّهُ..

وقد ظهر الواحدُ والجمعُ، وهذا القَوْسُ

الأبيضُ، والعدمُ الخالصُ، واللاشيءُ،

وهذا الموتُ النازلُ حتى الموتِ، وهذا الحوتْ.

ويأكلُني حتّى أفنى، يَمْضغني حتى الموتْ.

وأنا... أنتَ...،

وأنتَ كبيرٌ متعالٍ عالٍ، لا يصلُ الصوت،

ولا يصلُ السهمُ، ولا يصلُ الصاروخُ العابرُ والموتْ.

فاهبطْ يا ربي سُلَّمَ هذا الخلْق المحرور، وهدا

العبثِ الإعلاميِّ، وهذا الخَتَلِ الدهريّ.

وإلاّ... فاعلمْ أنّي المزروعُ قابل،

والمزروعُ شُواظٌ، وأنّي المقتولُ،

فهلْ بعد القتْلِ عقابْ؟

وهل يؤلمني أنّي إرهابيٌّ وخرجْتُ على قانونِ

الغابات بموتي؟

لا.. فاعلمْ يا إرثَ اليعقوبِ

ويا بيتًا أسودَ في غربِ البحر،

سأبقى في هذي الأرضِ دليلاً للأرضِ،

دليلاً للبحر، خطابًا للربِّ،

---

١ ـ عدد الدول الإسلامية، والتي شاركتْ في مؤتمر القمة الإسلامي المنعقد في ماليريا أواسط تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٣.

بأنّي قد قاومتُ الكُفْر، وقاومتُ الردّةَ،
قاومتُ الأسيادَ وقاومتُ السيد،
وقاومتُ الذُلَّ وقاومتُ الليلَ وقاومتُ الموتْ.
وأنّي المنصورُ المنصورُ،
المنصورُ بصبري، والمنصورُ بروحي،
حتى لا يبقى غَسقٌ داجٍ يملأُ هذي الأرضَ بغاءً وحرابْ،
وحتى تَسْطع شمسٌ، نورٌ يملأُ هذي الأرضَ،
فيقومُ الميْتُ من القبرِ يُغنّي فرحانَ،
ويمشي تحت الشمس بهاءْ..
ويقومُ النخلُ تَدَثَّر بالياقوتِ وأعذاقِ التمر،
ويرقصُ دجلةُ مملوءًا شبقًا كونيًا، ويقومْ.
وأقومُ أنا، ويقومُ الجمعُ المهزومُ المنصورُ
الواقفُ من زمن التنّين يُراقبُ هذا
العُهرَ الكونيَّ، ويَمْلأُ روحهْ.
وتقومُ الأرضُ السيفُ المطرُ الشمسُ الزرعُ،
وهذا الوجْدُ بروحي.
ويسحُّ المطرُ الهطلُ الهتْنُ،
وأمشي في طوفانِ الحقّ،
وطوفانِ الإنسان،
وطوفانِ اللّه سلاما.
فسلامٌ للأرض بلا ذئبٍ،
وسلامٌ للأرضِ بلا قهْرٍ،
وسلامٌ للأرض بلا خوفٍ،
وسلامٌ للياقوتِ وللماءِ الفضّةِ والحجلِ البريِّ،
وللعصفورِ الطالع من شُرفات الصبحِ إلى روحِ النبعِ
سلامْ
وسلامٌ للبانين وللزُرّاعِ، وللجوقة تُنشدُ
أشعارَ الجوّالين، التفَّ الناسُ،
جميعُ الناس عليها، وهُمُ من روحِ الأرضِ،
وروحِ الحُبّ وروحِ اللّه ربيعْ.
وسلامٌ في روحِ الخلْق القادمِ
يأخذها كالعصفور إلى بابِ اللّهِ
لتعزفَ هذا اللحنَ الكونيَّ،
سلامٌ وسلامٌ وسلامْ.

إدلب